الوطن العربي .. من الاستعمار العسكري إلي الاستعمار الفكري

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 11 مارس 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

لم تسجل لنا كتب التاريخ تاريخًا محددًا واضحًا لبداية الاستعمار الغربي على المنطقة العربية الإسلامية، فبعض المؤرخين بدأ تأريخه للاستعمار الغربي مع بدايات رفرفة رايات الحروب الصليبية على الدول العربية من أجل استعمار فلسطين مع بدايات عام 1096 والبعض الآخر من المؤرخين يعتبر أن تأسيس المستعمرة البرتغالية في سبتة عام 1415 تُعد نقطة البداية لظاهرة الاستعمار، وذلك بغض النظر عن الحملات الصليبية.

علمًا أن مدينة سبتة هي مدينة إسبانية ذاتية الحكم تقع على القارة الإفريقية داخل التراب المغربي الذي يعتبرها مدينة محتلة، وهي تقع مقابل مضيق جبل طارق، تحدها من الشمال والجنوب والشرق البحر الأبيض المتوسط، يبلغ عدد سكانها 82.376 نسمة (وفقًا لإحصائيات التعداد السكاني المؤرخ في 1 يناير 2011)، وتبلغ مساحتها 19 كيلو مترا مربعا (أي أن معدل الكثافة السكانية فيها 4.240.52 نسمة لكل كيلو متر مربع)، ويتألف سكانها من المسيحيين والمسلمين، مع وجود أقلية يهودية وهندوسية، وقد

أصبحت المنطقة منذ عام 1995 تتمتع بصيغة الحكم الذاتي داخل إسبانيا بقرار البرلمان الإسباني عام 1995.

ومن المفروض أن الاستعمار يعني ببساطة التعمير والسعي لتحقيق العمران، ولكن الذي حدث في الواقع يختلف تماماً عن هذا التعريف اللغوي البسيط، فالاستعمار كما يرد في الكثير من المراجع الواقعية والمعاجم أنه استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفراده والعمل على استثمار مرافقه المختلفة. وإن اعتمدنا هذا التعريف فإننا في حديثنا هذا نتحدث عن أنواع مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، فمن أشكال الاستعمار – كما يشير الدكتور منقذ السقار – أن تضع دولة ما دولة أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار.

ومن أمثلة هذا الشكل للاستعمار ما فعلته فرنسا في تونس حيث وقعتا معاً معاهدة حماية في 1881/5/12م، ثم جددت في 1883/6/8م، وبموجب بنود هذه الحماية فقدت تونس سيادتها الخارجية وحقها في التمثيل الدبلوماسي المستقل، كما سلبت حق إبرام المعاهدات الخارجية، وعينت فرنسا آلاف الموظفين يرعون مصالحها يرأسهم المقيم العام. وما حصل في تونس

كررته فرنسا في مراكش بموجب معاهدة 1912/3/30م وفعله الإنجليز في مصر خلال احتلالهم لها بين عام 1914 - 1922م.

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته عصبة الأمم المتحدة التي تكونت حينذاك كمنظمة أممية لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعًا جديدًا من الاستعمار وهو الانتداب، حيث ورد إجازته في المادة 22 لميثاق عصبة الأمم التي اعتبرته طريقة للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيد هذه الأمم لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان مظهرًا للاستعمار ووسيلة لامتصاص خيرات الشعوب.

وفيما عدا هذين الوجهين أسفر الاستعمار عن وجهه الكالح، فأعلن عن ضمه بعض الدول إلى مستعمراته كما فعلت فرنسا بالجزائر.

وبأي صورة كان الاستعمار فإنه كان يهدف إلى أمرين لا ثالث لهما، وهما: تحطيم كرامة الشعوب العربية المسلمة وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، بالإضافة إلى فرض ثقافة الاستعمار على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة إلى مرحلة الحضارة. أما من الناحية الظاهرية فإن تلك الدول كانت تدعي أنها تبحث عن أسواق جديدة لتصريف منتجاتها وكذلك البحث عن المواد الأولية المتوافرة في آسيا وإفريقيا ولاستثمار رؤوس الأموال الأوروبية الفائضة.

ولكن من يتطلع ويبحث في تاريخ كل تلك الحملات يجد ما يذهل؛ فتشير كتب التاريخ إلى حدوث الكثير من المجازر التي يشيب لها الولدان -كما يقال- وإليكم ما حدث من خلال رسائلهم ومذكراتهم:

بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام 1880م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، ومثلها كانت الجزائر بلد المليون شهيد.

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيرك بفخر بعضًا منها وهو يخاطب ملك البرتغال مهنئًا إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: «وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أيامًا عدة ... وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفسًا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيمًا رائعًا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته».

وفي مدغشقر قتلت القوات الفرنسية ثمانين ألفا في ضربة واحدة للثائرين من سكان الجزيرة، فيما أعمل الإنجليز القتل في قبائل ماو ماو الإفريقية، ثم ادعوا أن وحوشًا مفترسة ظهرت في المنطقة وتخطفت الآلاف إلى مصارعهم.

وفي الجزائر يقول الجنرال الفرنسي شان: «إن رجاله وجدوا التسلية في جز رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبه».

ويخط المارشال سانت أرنو إلى زوجته بعض ما صنعه وجنوده في الجزائر فيقول: «إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في إفريقيا، فقُراها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمرنا كل شيء... أكتب إليك يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعًا، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع».

ويشنع الكونت هيريسيون على هذه القبائح التي لا مبرر لها فيقول: «فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر... في أناس مساكين جُلُّ ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه».

وقد تفنن المستعمرون في طرق إبادة هذه الشعوب، ومما أبدعوه في هذا الباب طريقة يسمونها «جهنم» حيث يتبع الجنود الهاربين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهوف فيشعلون عند باب الكهف نارًا عظيمة، فيموت من بداخله حرقًا أو خنقًا.

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يستطع الاستعمار العسكري الشرس أن ينجح مع الشعوب الإسلامية، وإنما طرد من الدول العربية الإسلامية شرد طردة وإن فعل الأفاعيل، وإن كانت كل المشكلات التي نراها اليوم ونسمع عنها هي بسبب كل تلك الهجمات التي لم تنته بعد.

ولكن عندما عرف الغرب أن حملاتهم العسكرية سوف تنتهي بطريقة أو بأخرى فقد تفتقت أذهانهم الخبيثة الشريرة على نوع آخر من الاستعمار وهو ما يعرف اليوم «بالاستعمار الثقافي»، وإن كان هذا النوع كان يسير جنبًا إلى جنب مع الاستعمار العسكري وخاصة في السنوات الأخيرة من تاريخ الاستعمار العسكري، إذن فما الاستعمار الثقافي ؟

الاستعمار الثقافي أو كما يسمى في بعض المراجع الغزو الثقافي مصطلح يشير إلى الجهود والممارسات التي تبذلها دول الغرب للاستيلاء والسيطرة على الدول العربية الإسلامية بطريقة غير عسكرية، وذلك – مثلاً – من خلال إقامة المدارس واستهداف الأطفال خاصة، وزرع الأفكار الغربية فيهم وتنشئتهم عليها، وكذلك السعي إلى السيطرة على مناهج التعليم ووضع مناهجهم التي يرغبون بإحلالها في المدارس، وبناء المستشفيات وتقديم العلاج المجاني لأبناء البلاد، بالإضافة إلى إرسال المبشِّرين والدعاة إلى الدول المسلمة الفقيرة كلورنس العرب والقس زومير وما شابه ذلك، وإقامة الدعوات والمنظّمات وفقًا لأسس مدروسة، كل ذلك

بهدف إلغاء الشخصية العربية المسلمة، واحتلال العقل قبل الأرض، وتهويد وتنصير أبناء المسلمين.

وفي الحقيقة نجح الاستعمار والغزو الثقافي أيما نجاح وخاصة في بدايات القرن العشرين وخاصة في الدول الفقيرة من الدول العربية الإفريقية والآسيوية، ولكن على الرغم من ذلك فقد تصدى الكثير من الدعاة لهذه النوعية من الغزو وكشفوه وكتبوا عنه الكثير من الأبحاث والكتب، فانكشفت ورقة التوت التي كانت تغطي عورتهم وسقطت، فرجع المبشرون إلى أوطانهم لا يجرون خيبات الأمل وإنما فكرة جديدة ونوعية أخرى من الاستعمار، وهذه المرة يمكن أن نطلق عليها «الاستعمار الفكري»، فما الاستعمار الفكري؟

يختلف الاستعمار الفكري بطريقة أو بأخرى عن الاستعمار الثقافي، فإن كان الاستعمار أو الغزو الثقافي يهدف إلى تهويد وتنصير أبناء المسلمين واحتلال العقول قبل الأرض فإن الاستعمار الفكري يعني زعزعة أفكار أبناء المسلمين وانتزاعهم من فكرهم وهويتهم وتراثهم ودينهم الإسلامي، بل وانسلاخهم من كل ما يتعلق بالإسلام ومن لم ينسلخ من الإسلام الحقيقي يمكن أن ينخرط فيما يعرف اصطلاحًا بـ «الإسلام الأمريكي الحديث»، الذي يدعو إلى تحديث الخطاب الديني وإلغاء كل ما يتعلق بالجهاد والآيات التي تدعو إلى كشف اليهود وخبثهم ومخططات بعض النصارى، وإن أمكن إلغاء القرآن الكريم من حياتنا ولكنه يمكن أن يبقى في منازلنا ليتراكم عليه الغبار، فلا بأس من

ذلك، والتشكيك في الأحاديث النبوية من خلال التشكيك في الصحابة رضوان اللّه عليهم والبخاري ومسلم وكتب الصحاح، والتشكيك في الدعاة والمشايخ، وإبقاء الإسلام في بعض الشعائر مثل الصلاة والصوم والحج فقط، وحتى الزكاة التي تعني التكافل الاجتماعي والاقتصادي فإنه من الأفضل أن يلغى، وإيجاد ما يعرف بـ «الإسلام السياسي» وإسلام المرأة والاقتصاد الإسلامي، وتفتيت الإسلام إلى أجزاء وأقسام ما أنزل اللّه بها من سلطان.

كل ذلك من خلال القوى الناعمة، كالإعلام، وتمجيد النموذج الغربي من شباب وشابات، والحريات المطلقة وزواج المثليين أو بالأحرى الشواذ جنسيًا وتحطيم مفهوم الأسرة والأب والأم، والأم العزباء، وما إلى ذلك من مسميات، وتحطيم المعلم والمدرسة وتغير المناهج الدراسية، وإبعاد اللغة العربية عن المناهج، إذ أصبحت في بعض البلدان العربية لغة غريبة وللسخرية فقط ويتم الاستهزاء بمن لا يعرف أن يتحدث إلا اللغة العربية، وللأسف كل ذلك يحدث الآن، فنحن في زمن الاستعمار الفكري، فهل نعي ذلك ؟

ونجح الغرب، وأبعد ابناءنا عن فكرة القومية العربية والهوية الإسلامية، فأصبحنا غرباء في أوطاننا، وأصبحنا لا حول لنا ولا قوة نستجدي من الغرب حياتنا وفكرنا وهويتنا، فأصبحنا نبحث عن كل ذلك في براميل قمامة الغرب اعتقادًا منا أنهم أفضل منا، وإن كانوا في الحقيقة غير ذلك.

ولكن، ماذا عن الاستعمار الاقتصادي ؟ هذا هو حديثنا في الأسبوع القادم.